

## «السنوات الرهيبة»

د. حسن الأمرائي

الخطوطية واللغة في السنوات الرهيبة

- ١ -

**علما** كانت آلة الشيوعية الجهنمية تسحق الشعوب المستضعفة، وتدمر كيان الإنسان، وتشوه فطرته، كان زعانفة الأدب يمجدون استبداد الفرد، وباركون طفانيه، بدعوى مباركة الطليعة؛ لأن الطليعة هي الحزب «المستبد»، والحزب هو الشعب .. هكذا كان مكسيم غوركي في الاتحاد السوفياتي، وهكذا كان إسماعيل قدري في ألبانيا..

صانع العجائب، فمبارك أنت.

- ٢ -

في تلك السنوات الرهيبة، كان هنالك فئة ثالثة من الأدباء، تمثل ضمير الأمة، ولسانها الصادق .. أثبت أن تخضع للطغاة، أو أن تسخر أقلامها مأجورة لليسار أو اليمين، واختارت أن تحفظ للكلمة نقاءها وقدسيتها، فلا تستعملها إلا فيما يرضي الله عز وجل. ورغم قساوة الحصار، وفضاعة الرقابة التي بلغت شراستها على يد «جدانوف»، أصّر هؤلاء الأدباء على تخطي كل عوامل القهر والإجباط، وتعالوا على المتاع الرخيص، فأبدعوا أدباً صادقاً حقاً، وجيلاً حقاً، ومعبراً حقاً.. ومن هؤلاء الكاتب التتري المسلم جنكيز ضاغجي صاحب رواية «السنوات الرهيبة»، وقد صدرت هذه الرواية في عام ١٩٥٦، أي في عز الشيوعية وقبضتها الحديدية، وهي رواية تصور - في شجاعة نادرة، وصدق بالغ - مأساة الشعب المسلم في شبه جزيرة القرم، التي كانت خاضعة للاتحاد السوفياتي المنهار، وتنتقد أسلوب تعامل النظام الشيوعي مع الأقليات التي استطاع أن يمد إليها جبروته..

إن الخطوصية هي الهمّ الجوهري في هذه الرواية، وتتجلى هذه الخطوصية في مظاهر شتى منها: الدين واللغة.

فالشعب التتري، كما تصوره الرواية، شعب

- أنا؟ أفسو عليه لأنه ضعيف لا يؤذي أحداً!

- أنضربه إذن لأنه ضعيف؟

- وما عسى أن يكون شأن الضعفاء؟ ولأي شيء خلقوا وهم لا يستطيعون أن يمدوا يدهم إلى أحد بسوء؟»

### تتجلى الخطوصية في هذه الرواية في محاورين أساسيين: الدين واللغة

هذه الروح الجاهلية هي فلسفة غوركي، ومن ورائه فلسفة النظام الحديدي الذي كانت تمثله الشيوعية.

وفي صلف وقح، وكبرياء ممجوجة، وادعاء كاذب لتمثيل عواطف الشعب، يقول في خاتمة روايته:

«أيها الشعب، أنت هو إلهي! أنت هو خالق كل الآلهة التي ابتدعتها بصلاح نفسك بين ظلمة الاضطراب والفوضى وبصيص التنقيب والدرس». أيها الشعب، لن يكون على الأرض إله سواك، لأنك أنت الإله الأحد،

كان مكسيم غوركي يرى ما يصنع ستالين، ويشاهد الجماهير المعذبة وهي تنفى وتساق إلى جليد سيبيريا في عربات الحيوانات، ولكنه كان ما يفتأ يؤله الدكتاتور.. وكان إسماعيل قدري يرى شعبه المستضعف ينال من إذلال الحاكم ما ينال، ولكنه رضي أن يكون عبداً لأنور خوجه.. رمز الطليعة «الثورية»..

وهكذا كان كل زعانفة الأدب. وكان يطلق اسم «المنشق» على كل من قال «لا»، ويتهم بموالة الغرب الأمبريالي.. وربما انتهى الأمر ببعض هؤلاء المنشقين إلى الانتحار، أو الجنون، أو الصمت، أو المنفى.. ماياكوفسكي، وباسترنك، وسولجنتسين.. والقائمة طويلة..

لقد استطاعت القائمة الأولى، بالبهرج الكاذب، أن تسكن أبراجها العاجية، وتضرب حولها هالة من المجد الزائف، الذي يضيفه الحكام على المتمجدين، كما وجدت الفئة الثانية من يحضنها من الغرب، ويعرف بها، ويدافع عنها، إن صدقاً وإن كذباً..

كتب غوركي في روايته «أين الله» هذا الحوار:

«قلت له: ألا تخشى أن يكون أقوى منك فيؤدبك؟

فأجاب: إنه مسكين لا طاقة له أن يخاصم أحداً.

فسألته: وعلام إذن تعذبه وتقسو عليه؟

مسلم معتز بدينه، ومعتز أيضاً بخصائصه المميزة التي من بينها اللغة، وهو يدخل في صراع مع الروس الذين سعوا إلى القضاء على لغته وإحلال لغتهم محلها.

هذا الاعتزاز بالخصوصية واضح في كل شيء: في الحدث، وفي الحوار، وفي شخص الرواية، وفيما يتخلل كل ذلك من عناصر الحكيم المتميز. فالبطل يحس بفضل الأتراك عليه وعلى آبائه، في حمل الإسلام، بل هو يحس أنه تركي، فلذلك تتوقف عيناه أمام بيت من الشعر يقول: «أنا تركي، وأنا عدوك، حتى ولو لم يبق من أمتي إلا أنا فقط».

وتجسد بعض العبارات مأساة التتر في عمق: «أدركنا يا رب فإننا ننتهي... إننا في طريقنا إلى الزوال».

كيان التتر، في الرواية، تعبر عنه عناصر مختلفة، من أهمها هذه العلاقة الحميمة التي تربط الإنسان بالمتحدة.

«لقد كنت جزءاً من تلك المتحدة، جزءاً منها بروحي، رغم أن دروسنا كانت كلها ضد الدين، ورغم أنهم كانوا يعلموننا في المدرسة الإلحاد والفكر الشيوعي...»

«نظرت إلى المتحدة فوجدتها تهتز. هذا الشيء الذي كان يتزلزل أمامي، كان شيئاً يُحييني! يبعث في الإحساس بالحياة»، «إنهارت المتحدة وانتهت، أما أنا فلم أكن أستطيع أن أنهار ولا حتى أن أقف على قدمي». إن القضاء على المتحدة.. على المسجد.. قضاء على كيان أمة، وليس الصراع، كما تزعم الطلائع الثورية، صراعاً بين البرولتاريا والإقطاع، ولكنه صراع بين النور والظلام، بين الحق والباطل..

التعلق بالوطن.. بالأرض.. وجه آخر من وجوه الدفاع عن الخصوصية.. لأن الوطن ليس حفنة من تراب، ولكنه التاريخ والحاضر والمستقبل، والدفاع عن الوطن يقتضي كثيراً من الصبر، وكثيراً من التضحية..

«كانت الأمة القرمية تحب وطنها الأصلي، تحب أرضها أكثر من كل شيء، حتى أكثر من نفسها. لذلك كانت صامته. كانت راضية بكل ظلم، راضية بكل شيء، فيكفي أنها تعيش في أرض الآباء والأجداد».

لقد أصاب شعب القرم الاضطراب والتشرد من جراء ظلم البلشفيين، ولكنه ظل متشبهاً بأرضه لا يبغي بها بديلاً.

إن الأرض إذن عنصر جوهري في الشخصية والكيان. والانتماء إلى هذه الأرض انتماء إلى حضارة.. إلى عقيدة.. العقيدة التي يحملها المسلم بين جنبه أينما حل وحيثما ارتحل.. «صادق! إنك لن تستطيع الحياة مع هذه المجموعة من الكفار مدة سنتين كاملتين» والستتان سنتا الخدمة العسكرية، وخلال هاتين السنتين لم يعمل صادق على المحافظة على كيانه وعقيدته فحسب، بل كان عليه أن ينقل هذا الإيمان، أو أن يبعثه في نفوس إخوانه من التتار الذي جندهم الروس في الخدمة العسكرية..

في جو رهيب، كذلك الذي فرضه الروس على المجندين، يصبح الحديث باللغة الأم حفاظاً على الكيان، وتعبيراً عن الخصوصية، ومن هنا تبرز أهمية اللغة.. ليست اللغة أداة للتعبير عن الأشياء فحسب، ولا هي تعبير عن الأفكار فحسب، بل هي الصورة الناطقة للوجود الإنساني، والعلاقة بينها وبين الكينونة أعمق من العلاقة بين الوعاء والمحتوى، أو بين حدي الصورة النوعية.. إنها تكون الوجود ذاته.

«تغيرت أسماء الصحف، كما تغيرت الحروف أيضاً».

حلت الحروف الحمراء محل الحروف

## الدفاع عن الوطن يقتضي كثيراً من الصبر والتضحية والتحمل

اللاتينية في كل مدارس التتار وصحفهم. يقولون إن الحروف الروسية أكثر ملاءمة لأصوات اللغة التتارية من الحروف اللاتينية. ها! ها! أريد الضحك بدلاً من أن أبكي...».

اللغة مرتبطة بحروفها. الحروف الروسية تعني اللغة الروسية، واللغة الروسية تعني الروس.. تعني المحتل.. تعني الجيش الأحمر الرهيب.. عندما يرضى الإنسان بأن تستبدل لغته حروفاً بحروف، يكون قد رضي بالانسلاخ الحضاري: «كل الكلمات التتارية والجمل التتارية مكتوبة بحروف روسية.. كلما أنظر إلى هذه الحروف أجد نفسي تنفر وتشمئز من لغتي، من هذه اللغة العذبة التي تحدثت بها أمهاتنا وهن يهددن أطفالهن الصغار. هذه الحروف الروسية قبيحة وجلفة، إلى حد أنني لا أدري لماذا أنظر وكأنني أرى يد طفل تتاري تكتب على سبورة الفصل، اللغة التتارية بحروف روسية. رأس صغير بلا عيين، ويد ضعيفة لا تختفي صورتها من أمامي! أبكي؟ لا أريد أن أضحك».

يضحك، ولكنه ضحك كالبكا. كيف يمكن للغة العدو أن تنقل إلينا وإلى أبنائنا ما يمثل الخصوصية: الدين.. التراث.. الثقافة الشعبية.. يبدو ذلك مفارقة غير مقبولة: «كُتبت لأبي أن يرسل إلي في رسائله بعض أسطر من ملاحنا الوطنية. ترى، هل سيرسل أبي إلي «السيرة النبوية» و «ملحمة جورا باطور» بأحرف روسية؟!».

ويصبح الاختيار، آنذاك، صعباً، ولكن لا مفر منه: «لم تعد لي حاجة إلى البكاء، فإني أعلم أن التتاري الأصيل لن يقرأ هذه الصحف. أتذكر

الخصوصية فيرون أن اللغة ملك لكل الناس، تشكل وجودهم؛ لأنها تكتنز تراثهم وثقافتهم وكل ما يحقق كيانه، بل إنها الامتياز الحقيقي.. إنهم يصححون المعادلة...

إن اللغة تصبح تعبيراً عن قوة هائلة، يعبر عنها الكاتب في ذلك الحوار البليغ والمؤثر الذي جرى بين صادق، المصمم على نقل شعوره إلى كل أبناء أمته، وبين الحارس التاريخي الذي كان يحرس معسكر الروس،

لقد أوشك الحارس أن يطلق النار على الشبح الذي يقرب منه لولا تلك الأداة السحرية التي لجأ إليها صادق: اللغة.

«يخرج من الظلمات شخص أماننا، إنه سليمان:

- لماذا تركت الملازم دون أن تتلقى منه كلمة سر الليل، يا كريم!

يسكت كريم، يكرر سليمان قوله لكريم بصوت جاد آمر. ويسأله:

- لماذا؟ ألا تعرف الأمر؟!

- إنه تكلم بلغة المسلمين يا سيدي، لذلك لم أستطع إطلاق النار عليه!

هذا الموقف البطولي الذي وقفه صادق، حين أقبل على الحارس دون إلقاء كلمة السر، متزوداً بلغة المسلمين فقط، وهو يعلم علم اليقين أنه قد يموت، أثر في سليمان وغير نظرتة، فقال مخاطباً صادقاً:

- في فصليتي اثنا عشر تتارياً، تعال عندما تسنح لك فرصة للتحدث معهم. إني الآن مؤمن بأن لغتنا بالنسبة إلينا شيء عظيم القيمة».

مشاعر غيري.

(...) لو قامت الحرب غداً بين تركيا وروسيا: لعلك توجه بندقيتك ورصاصك إلى صدور الأتراك! من يدري! سليمان! ألا ترى هذه الحروف!... إنهم يقومون في كل مكان، في الجيش وفي منازلنا، في الشوارع، وفي كل خطوة، بتشتتنا على حب الوطن وعشق الوطن. أهذا هو الوطن؟!».

مرة أخرى يتبين أن الوطن ليس حفنة من تراب.. إنه الوجود ذاته، واللغة عنصر من عناصر ذلك الوجود، والإنسان حين يقتلع من لغته فإنه يقتلع من جذوره، وحين يجهز العدو على اللغة فإنه يجهز على كل شيء.. أخطر مظاهر الإبادة هي الإبادة الثقافية، إذ ما الذي يبقى من الإنسان إن هو أريد ثقافياً؟ وهذا ما يعلن صادق جهاراً في قوله:

«انظر يا سليمان إلى هذه الصحف. إن لغتك هي لغتي.. لغة آبائنا وأجدادنا. كيان الأمة لا يظهر إلا بلغتها وبوطنها. أليس كذلك؟ منذ مائة وخمسين سنة، نقانا الحكم القيصري الروسي من وطننا، من جنتنا. ارتكب فينا عمليات إبادة وتقتيل. والحكم الروسي الشيوعي الآن يقوم باغتيال اللغة التاريخية الحية التي يتحدث بها حفنة من التتار هنا وهناك».

كان الروس يزعمون أن اللغة التتارية لغة الجهال، وهي لغة قاصرة، أما اللغة الروسية فهي لغة العلم، ولذلك فهي لغة التقدم. تماماً كما كان يزعم دعاة الفرائكفونية - وما زالوا - في المغرب العربي، ويقولون: إن الفرنسية هي لغة العلم، ولغة الحضارة، ومن وراء ذلك يعطون ولاءهم الكامل لما وراء البحار..

يرد صادق هذه المغالطة قائلاً: «ثم إن اللغة ليست لغة العلماء فقط. إنها لغة كل شخص، لغة الراعي ولغة الفلاح، لغة كل الأمة.. كل فرد».

دعاة الانسلاخ يريدون تعلم لغة المستعمر امتيازاً، إنها لغة النخبة.. أما المتممون إلى

كلمات أبي: إنهم يخافوننا يا صادق! إنهم يخافون من وجودنا من كياننا».

وكما حدث في تركيا الكمالية التي استبدلت الحروف اللاتينية بالحروف العربية، فأصبحت بلا ذاكرة، وكما حدث في العالم العربي حين نهض من يريد أن ينقل إلينا تجربة تركيا، حتى أقدم بعضهم على نشر كتبه بعربية حروفها لاتينية!! كما فعل سعيد عقل في ديوانه (لارا)، وكما يحدث في مثل هذه الظروف دائماً، يفجر الصراع بين المثبتين بالخصوصية والوجود الحضاري وبين دعاة الانسلاخ الحضاري. ولعل الحوار الذي دار بين صادق وسليمان يجسد وجهاً من أوجه ذلك الصراع:

«قذفت بالصحف أمام سليمان يريد قراءتها ولا يستطيع. ينظر بد هشة إلى الكتابة.

(...)

- وماذا سأقول: فلتكتب بأي شكل مناسب. نحن يا أخي مجنونون. كما أننا بعد ذلك سنكتب بسلاحنا وليس بالقلم.. فالجيش الألماني الآن على حدود بولندا».

وبالرغم من أن سليمان صار عاجزاً عن قراءة لغته، وأنه ينظر بدهشة إلى الكتابة الجديدة، إلا أن تلك الدهشة ما تلبث أن تغرق في بحر اللامبالاة. حتى صيحتهم بأنهم سيكتبون بالسلاح وليس بالقلم، لا معنى لها.. لأن هذه الكتابة بالسلاح ستكون ليس دفاعاً عن الخصوصية، بل عن الروس.. لقد صار سليمان جندياً في الجيش الأحمر، وعليه أن يقاتل أعداء الجيش الأحمر..

ولكن صادقاً كان من طينة أخرى، فبالرغم من أنه - هو أيضاً - صار جندياً في الجيش الأحمر فإنه لا ينسى أنه تتاري، وأنه مسلم، ولذلك يصيح في سليمان قائلاً:

«أنت لا ترى إلا ارتداء البدلة العسكرية، ولا تعرف ألا التبختر بها، وتحية النساء، هذا ما تحيده. لكن إياك أن تمس أحساسيسي التي أكتها لأمتي بأي أذى، لا تمس أحساسيسي في هذا ولا

# عيد الفقراء

د. وليد قطّاب

- العيد يقترب شيئاً فشيئاً، ومع اقترابه تتضخم المأساة، وتزداد حدتها، ويرتسم شبحها مزعجاً مقلقاً في عيني أبي عمر. وصوت زوجته لا يكفّ عن تذكيره كلما أوشك أن يخلد إلى شيء من التناسي:-

- العيد على الأبواب يا أبا عمر..

فيجيب بانكسار:-

- أعرف، أعرف يا امرأة...

فتقول محتجة:-

- ولكنك لا تفعل شيئاً يا رجل.. أيا عيد ولا نشري كسوة جديدة للأولاد، أو يدخل بيتنا طعام دسم أو بعض من الحلوى التي لا يخلو منها بيت في هذه المناسبة؟.

حقاً، هذه أشياء لا بد منها في العيد. والدنيا منذ أكثر من أسبوعين قائمة قاعدة، تستعد لهذه المناسبة. الأسواق أصبحت لا موطىء فيها لقدم. والناس تدفع بلا حساب. تشتري حلاًلاً جديدة، وهدايا للأولاد، وأطعمة وحلوى وأشياء لا تعد ولا تحصى. المال يتدفق من هنا وهناك، كنهز لا ينقطع. عجباً، من أين يأتي الناس بهذه الأموال؟ حتى جاره أبو سعيد، الموظف البسيط في وزارة التربية، كم مرة التقى به في الحارة وهو يتنحّج من ثقل ما حمل من رزم وأكياس كاد يخنفي وراءها، وجاره الحاج رضا لا تكف زوجته عن التباهي أمام الجيران بما يحمل زوجها كل يوم من أشياء العيد وحاجاته.. إلا أنت يا أبا عمر، الوحيد في الحارة الذي يبدو أن الخيبة قد حلت عليك، على حد تعبير أم عمر.. تصرف يا رجل.. نريد كسوة للأولاد وطعاماً وحلوى.. أولادنا ليسوا أقل من أولاد الناس.. ولكن كيف تتصرف يا أبا عمر؟ العين بصيرة واليد قصيرة، يتخيل نفسه مثل أبي سعيد أو الحاج رضا، يدلف إلى حارته وبين يديه عدد من الرزم والحزم والأكياس، فيها ملابس

زاهية، وأحذية جديدة، وحلوى للأولاد، وسوف يرفع رأسه في الحارة يتأهاً فخوراً، إنه رجل مثل رجال الحارة جميعاً، يستطيع أن يشتري كما يشترون، وينفق كما ينفقون، ويجلب مثلما يجلبون، ولن تستقبله أم عمر في هذه المرة بعبارات السخرة المعتادة:-

- عدت يا أبا عمر ملوحاً بيدك؟..

بل ستفغر فاهها دهشة وعجباً، وستشرق على ثغرها ابتسامة انطفأت منذ عهد بعيد، ويزداد انطفائها يوماً بعد يوم كلما أوشك العيد أن يقرع الأبواب، وستهرع عصابة الأولاد تخطف ما يحمل، فتشرق البهجة في المنزل، وتزهو في العيون ابتسامات وضحكات.

ويستفيق من خوابه. عجباً، ما بالك قد أسرفت في الحلم يا رجل؟ لقد انتهى زمن المعجزات منذ عهد بعيد. والمعجزات والكرامات لم تظهر إلا على يد الأنبياء والأولياء الصالحين، وأنت عبد ضعيف من سوقة الناس، لم تؤثر لك مكرمة من مكرمات الدين أو الدنيا.

وتابع طريقه إلى المنزل، وكلما اقترب طفحت التعاسة على وجهه، وعضته كآبة مؤلمة. سيجد الأولاد بانتظاره عند الباب وقد عللوا أنفسهم بأمل في طيبات لا حصر لها، إنهم يتصورون أباهم - مثلاً يتصور جميع الأولاد آباءهم - عملاقاً يصنع المعجزات، وحسبهم أن يفوضوا إليه بما يريدون، حتى يحققه في الحال، صحيح أن القلق قد بدأ يساور أولاد أبي عمر في هذه المرة؛ فكل يوم يعود أبوه خاوي الوفاض، والأيام تزحف بسرعة، معلنة اقتراب العيد، ولكنه قلق لم يززعز قط يقينهم في أبيهم، إنه بلا شك سيحمل إليهم كل شيء في الوقت المناسب تماماً، أما أبو عمر فكانت

قصة  
قصيرة

\*\*\*

عند مدخل الحارة لمح ثلثة من الأولاد.

كانوا منهمكين في لعبهم وضوضائهم، فلم يشعروا بمرورة، ولكنه لمح عند حنفية الماء التي في مدخل الحارة ابنه عبد الرحمن في ثيابه الرثة. كان يقف مع عادل ابن الحاج رضا الذي رفل في ثيابه الجديدة، ويده لعبة براقه كان عبد الرحمن ينظر إليها مبهوراً، ويحاول أن يتحسسها بيدين مرتعشتين. لم يشعر عبد الرحمن بمرور أبيه، ولكن أبا عمر ما كاد يصبح بمحاذاة ولده حتى صك سمعه صوت عادل يقول لرفيقه:

- ماذا أحضر لك أبوك على العيد يا عبد الرحمن؟

أمسكت أبا عمر غصة في حلقه كادت تخنقه، وتسمّرت قدماه، بينما أجاب عبد الرحمن صديقه بانكسار وبراءة:

- لم يحضر لي أبي شيئاً حتى الآن .. ولكن أمي أكدت لنا أنه سيعود اليوم ومعه ملابس وحلوى ولعب كثيرة ..

شعر كأن أحداً صفعه على وجهه صفعة أذهبت قواه، فاستند إلى الحائط لأنه أحس في الوقت نفسه أن قدميه لا تقويان على حمله، ثم سمع الأولاد المتجمعون خبطة قوية، فالتفتوا نحو مصدر الصوت مذعورين.

\*\*\*

ظل أبو عمر في حالة غيبوبة طوال اليوم. وعندما فتح عينيه في المساء كان وجهه يحاكي صفرة الموت، وكانوا ملتفين حول سريره وفي عيونهم نظرات حزن وألم وانكسار. وعندما استطاع أخيراً أن يجد صوتاً واهناً التفت إلى زوجته، وغمغم بذل:-

- لا تؤاخذيني يا أم عمر .. عدت كالعادة ملوحاً بيدين فارغتين ..

فهمست أم عمر بصوت مؤثر، يعكس إحساساً بالذنب، وهي تربت على كفه بحب واعتذار:

- سامحني يا أبا عمر .. ولا تهتمّ بهذا الآن .. أنت أعزّ علينا من كل شيء في هذه الدنيا ..

ثم مسحت دموعاً غزيرة تجمعت في مآقيها، بينما غطت

الغصة تملأ حلقه وهو يتجه إلى المنزل، كيف يحقق للأولاد ظنهم؟ كيف يحافظ على صورته في عيونهم فلا تضطرب أو تهتز؟ إنه يرزح دائماً تحت أعباء ثقيلة لا يقوم مرتبه الضئيل بتحمل بعضها إلا بشق النفس، وقد قبض منذ أيام هذا المرتب مع زيادة تُعطى عادة في الأعياد، وبعد أقل من أسبوعين كان قد أنفق شطره الأعظم، ولم يبق في جيبه إلا مئة ليرة لا تكاد تصنع شيئاً في هذا الغلاء الفاحش الذي أصبحت فيه الليرة مثل القروش، والعشرة مثل الواحدة، عجباً، كيف تغيرت الأحوال والناس والأيام؟ كانت المئة ليرة ذات يوم ثروة تصنع الكثير، ولكنها اليوم تافهة لا تكاد تكفي حاجة يوم. ماذا يفعل؟ استدان في الشهر الماضي من صديقه الحاج خليل ثلاثمائة ليرة على أن يسدها في أول الشهر الحالي، ثم اعتذر إليه، وكان يعتزم أن يطلب من الرجل مبلغاً آخر يستعين به على أعباء العيد، ولكنه أمسك عندما وجد اعتذاره يقابل بغير ارتياح؛ فقد غمغم الحاج خليل متذمراً:-

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. كان ينبغي أن تخبرني بهذا من أول الأمر حتى أتدبر شأني يا أبا عمر.

تابع طريقه إلى المنزل والأفكار تعصف برأسه.

كم يتهيب العودة وهو يتخيل تلك الوجوه التي سيلقاها! وجوه فيها تطلع وتساؤل، وعليها لهفة وأمل. سيسرعون إليه وقد حسبوا أنه جاءهم أخيراً يحمل الفرج. ولكن أكثر ما يقتحم عليه خواطره المرهقة صورة زينب كبرى أولاده وقد أطلت من عينها دائماً تلك النظرة الحزينة المنكسرة. إنها - فيما يبدو - الوحيدة في هذا المنزل التي تشعر بالمأساة، وتشاركه المعاناة على صغر سنها. سمعها منذ يومين تعاتب أمها عتاباً رقيقاً بعد أن أغلظت له في القول، واتهمته كالعادة بالخيبة والغفلة وقلة الحيلة. كانت تقول لأُمها:-

- لا نريد شيئاً يا أمي .. عندنا كل شيء .. وأبي لن يخل علينا إن كان معه، فلماذا لا تكونين رقيقة في حديثك إليه؟

عجباً، كيف تدرك زينب الأمور على هذا الوجه؟ وبقدر ما أسعده كلامها يومذاك، أتعسه أن تحمل - على صغرها - إصر المعاناة، ومرارة الإحساس بالوطأة والشدة. إن ذلك يجعلها تكبر قبل أوانها.

عذبه هذا الشعور، وأصبحت زينب مبعث هم وقلق آخرين.

# البكاء

## على غرناطة

محمد عبد القادر الفقيه

حينما انهزمت جيوش أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة، عاد إلى أمه باكية، يشكو إليها ضياع ملكه وانتصار النصارى فقالت له كلمتها المشهورة التي ما زالت تدوي في أذن الدهر: (ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً .. لم تحافظ عليه مثل الرجال). وها نحن أولاء اليوم نبكي «غرناطات» أخرى.

|                                              |    |                                  |
|----------------------------------------------|----|----------------------------------|
| أنت أهملتُهُ فأضحى صريعاً                    | .. | ابكٍ مثل النساءٍ مُلكاً أضيعاً   |
| بل قواريرٌ قد عشقنَ الخنوعاً                 | .. | ووطنٌ لم يَزِدْ رجالكُ عنه       |
| دُكَّ، واحسرتاه، دكاً مريعاً                 | .. | كلّ ما قد بناه كلُّ جدودي        |
| كيف تُمحي؟ أأنت صرتَ خريعاً <sup>(١)</sup> ؟ | .. | سنواتٌ من البطولاتِ تُمحي        |
| كيف أرضى .. أنا .. وليداً جزوعاً؟!           | .. | لستَ مني ولستَ قطُّ وليدي        |
| فاحصد اليوم مُرّةً والضريعاً                 | .. | قد زرعتَ الأسى بقلبي جبّالاً     |
| وانتظر طعنةً تمجُّ النجيعاً!                 | .. | وابكٍ مثل النساءِ والطُمُ خدوداً |

\* \* \*

|                                              |    |                                 |
|----------------------------------------------|----|---------------------------------|
| لَفَحُهَا حارقٌ يُذيبُ الضلوعاً              | .. | في فؤادي من اللظى زفراً         |
| ما سيذكي البياضَ فيها سريعاً                 | .. | وبعينيّ من سوادِ انسحاقِي       |
| أين ملكٌ بناه «صقرٌ» بديعاً <sup>(٢)</sup> ؟ | .. | أين بيتي؟ مرابعي؟ ذكرياتي؟      |
| لا أرى في الديار إلا صُدوعاً                 | .. | لا أرى في السماء إلا ظلاماً     |
| غارَ في العظم واستطاب الهجوعاً               | .. | فيلقُ الشرّ قد رمانا بسهم       |
| خيّلها أدبرتْ وفَرَّتْ جميعاً                | .. | فالثغورُ التي تحدُّ بلادي       |
| من دم المسكِ قد أُذِقتْ خضوعاً               | .. | والحصونُ التي سقاها جدودي       |
| صوتُهُ تاهَ لم يُصادِفْ سميعاً               | .. | والجهاذُ الذي به عزّ قومي       |
| أنبثتْ ذلّةً وعاراً فظيعاً                   | .. | وإذا الأرضُ لم تُصْنِها أُسودُّ |
| لن يُجِيلَ البُكا خريفِي ربيعاً              | .. | فابكٍ ما شئتَ أنْهراً من دماءٍ  |
| وسألقي الغداة ذلاً وجيعاً                    | .. | سوف أحيأ أسيرةً يا لبؤسي        |

(١) إشارة إلى عبد الرحمن الداخل (صقر قريش).

(٢) الخرج والخرّيع: الضعيف.

ليتني مت قبل هذا فإني

\* \* \*

لن أطيّق الصليب يوماً ضجيعاً!

عشت أعمى مُسربلاً في الخطايا

∴

لاهيأ فاسقاً خنوعاً وضيعاً

∴

داهم الموت في الصّباح الجموعا

∴

فاجنّ ما قد زرعت نصلاً وقيعا

∴

وتلقّ الهجاء سُماً نقيعا

∴

لم تكن في الوغى صبوراً شجيعا

∴

فانتظر مقصلاً وموتاً فجوعا

∴

واشهد الكفر إذ يقيم النطوعا

∴

لن تراه ولن يحلّ الربوعا

∴

كيف يجني الرّعاع منها زروعاً؟

∴

كيف تضحي الغداة حصناً منيعاً؟

\* \* \*

قف بغرناطة وراقب أساها

∴

كيف سيق السّراة فيها قطيعاً؟!

∴

وأزالوا جذوعها والفروعا

∴

في حانا ولم يراعوا رضيعا

∴

فقيام الجنود أضحي ركوعا

∴

لم يعدّ وقعه يلاقي شفيعا

∴

لذئاب العدا دعاة يسوعا

∴

وكهول الطّبّاء تبكي التبيعا

∴

والروابي تننّ تهمة دموعا

∴

وبلاداً عبيرها لن يضوعا

∴

وعلى العبد أن يكون مطيعا

ولّي الله .. حكمه في ماضٍ